

دبلوماسيَّة سلطنة عُمان

منارة الحياد نحو تحقيق السَّلام



د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة
عمان

تقف تعددية الأطراف في عصرنا الحالي موقف الحكمة للإنسانية جمعاء، إذ تتجاوز الحدود القومية والثقافية لتشكّل نسيجاً متشابكاً من الحوار المستمر، وتصنع انعكاساً فلسفياً عميقاً لفكرة أنّ الإنسانية في جوهرها كيان واحد متصل، وأنّ مصائر الشعوب متشابكة بطرق تتجاوز التقسيمات الاصطناعية التي صنعت، إذ تصبح الدبلوماسية في هذا السياق متعددة الأطراف ومجسدة لوعي جمعي متنامٍ بأننا نشترك في مصير واحد على هذا الكوكب، وأنّ الطريق نحو السلام لا يكمن في القوة أو الهيمنة، بل في الاعتراف العميق بالتّرابط الأساسي بين جميع أشكال الحياة والحضارات.

هذا وتجلّي قيمة الدبلوماسية بقدرتها على تحويل منطق الصّراع من لعبة صفرية إلى مساحة للإبداع الجماعي، إذ يمكن للإنسانية أن تتعامل مع التحديات الوجودية المشتركة، فهي لا تسعى لتسوية الخلافات وحسب، بل لاكتشاف أرضية مشتركة جديدة تماماً تتجاوز الثنائيات التقليدية وتفتح آفاقاً للتفكير تسمح للبشرية بإعادة تخيل علاقتها مع نفسها ومع الطبيعة.

في هذا المعنى الأعمق، تعتبر الدبلوماسية تأملاً لتجاوز منطق الانقسام والاستبعاد، وتحقيق رؤية شمولية وتعاطف كونيٍّ ومسؤولية مشتركة تجاه المستقبل، ومنظور إسلاميٍّ تعدّ الدبلوماسية نظاماً متكاملًا يجمع بين الحكمة الشرعية والمصلحة الإنسانية، مع التركيز على غايتي الأمن والسلام، فينظر لمبدأ الحوار كفن قياديٍّ ربانيٍّ يجمع بين المبادئ الثابتة والوسائل المرنة لتحقيق هذه الغاية، وليس أداة دبلوماسية تقليدية وحسب، وهذا ما ظهر بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: 125).

وقد انطلقت دبلوماسية السلام هاهنا من الأسس القرآنية والسنة النبوية، فهناك مبدأ التعايش السلمي الذي ظهر بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (الممتحنة:8)، ومن السنة النبوية يظهر نموذج الدبلوماسية من خلال المفاوضات والتنازلات التكتيكية، ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لملوك العالم من خلال إرسال الخطابات المهدبة واختيار سفراء ذوي حكمة لحملها ومناقشتها مع الملوك، ووضع دستور ومعااهدات تدعو لتأسيس دولة متعددة الثقافات استناداً إلى مرونة التعامل والتطبيق وتحقيق المصلحة العامة وتقديمها على المصالح الخاصة، ضمن حدود التوازن والشفافية، بعيداً عن الغدر، أو وجود سلام مع ذل وإهانة وامتهان للكرامة، في محاولة جادة لتحقيق سلام مرن واقعي يدعم وجود أمن طويل بين الأطراف المتشاركة فيه، بشكل يحفظ كرامتها وعقيدتها، دون أدنى تنازل عن المبادئ.

فأمام بدايات بأخبار عاجلة فحواها صراع، قتال، حصار، مجاعة، وتليها ديباجة عالمية حقوقية تتضمن: تلزم المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة الدول الأعضاء بتسوية منازعاتها الدولية بالوسائل السلمية والامتناع عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامهما في علاقاتها، وشدد القرار على أن سياسات الحياد الوطنية التي تتبعها بعض الدول يمكن أن تسهم في تعزيز السلم والأمن الدوليين وتؤدي دوراً هاماً في إقامة علاقات متبادلة المنفعة فيما بين بلدان العالم، وظهر إعلام عربي ودولي بعناوين وشعارات طنانة: "نشجب، نستنكر، وندين"، تظهر قنوات التلفاز، مواقع الإعلام المرئي والمسموع، مواقع التواصل الاجتماعي وغير الاجتماعي، تمتلئ بالإدانات وبيانات الشجب والاستنكار، عبارات تعبر عن مواقف شعوب العالم قاطبة جرأ ما يحدث من تشرذمات تطال الشرق والغرب، وتمزقات في أواصر الشمال والجنوب، في ظل تحولات يشيخ لها الولدان، وتذهل عنها الأمم والشعوب، وتضع كل ذات دولة رأيها الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، في ظل انهزامات وانكسارات طالت المبادئ والقيم والوحدة والتآخي، عبارات رنانة قد لا تعبر عن واقع الإحساس لمن شجب وأدان وأنكر، ولكنها توشيح ودعوات توجه لضمائر العالم لأخذ موقف من ثلاثة، فإما أن تكون إمعة أو أنضدة أو على الحياد أمام ما يحدث، فتجد أغلب الدول حيارى:

فإمّا انخراط بالأحداث بتأييد للأطراف وزيادة للوضع سوءاً، ويطالها ما لم تحمد عقباه.. نشدّ ونآزر
وندعم...

وإمّا انخراط بسلبية رافضة دون توجهٍ واعٍ لما ترفضه ممّا يزيد على الجرح ملحاً ويلهبه.. نشجب
ونستنكر وندين....

وإمّا نأي وابتعاد، وحياد وانعزال عمّا يحدث من تيارات مدّ وجزر قد تطال الأخضر واليابس، وفي هذا
أيضاً انكسار للأمل على عتبات من يرجى منه خير عمل.. يؤلمنا ويحزننا ويبكىنا...
ومهما كان الموقف المتخذ والمعلن، فهو ليس الموقف المنشود، أو بالأحرى فلنقل بأنه يتمّ
على غير ما هو معهود..

فما يحدث من صراعات، وحروب إبادة، وفناء للإنسانية، وضياع الحقوق، وانسلاخ القيم، وانهدام
أحلام شباب الأمم، وضياع مستقبل أجيال الهمم، سيجعل من المستحيل على المجتمعات المضيّ
للقيم، في ظلّ ما يحدث من شروخ وفتن، في أثون نيران تستعر دون انطفاء، وجروح تنزف دون
اندمال، أمام هول المصاب، فهناك ما يجب أن يطلب ويستجاب، وهناك تأييد مطلوب بعد فهم
عميق للأسباب، وهناك رفض مطلوب بعد تصفية الألباب، وهناك حياد مرجوّ هو حياد سمته
الإيجاب دون سلبية وغياب، ومهما كان القرار، فإنّ كلّ دولة مسؤولة عمّا اتخذته من خيار أمام ما
تراه من معاناة دول الجوار.

وبين هذه الدولة وتلك، تظهر نماذج اتخذت من الحياد موقفاً ورؤية:

ففي نموذج سويسرا ظهرت سياسة الحياد كركيزة أساسية في سياستها الخارجية، وجزءاً حيويّاً
من هويتها الوطنية، وكان حيادها مسلحاً بجيش يدافع عن النفس دون مشاركة في النزاعات
الدولية، مع التزامها بعدم استغلال أراضيها لمرور أيّ قوات عسكرية أجنبية، وامتناعها عن أيّ
انضمام لأحلاف عسكرية، ورغم حيادها فلها حضور ومشاركة بفعالية، فلها بصمات في
المنظمات الدولية، واستضافة وتأييد للمنظمات الإنسانية.

وعكست فنلندا بحيادها ضرورة جيوسياسية، وطبقت سياسة بقائها مع الدول العظمى المجاورة في علاقات ودية، وحافظت على استقلالها السياسي وشؤونها الداخلية، وغيّرت حيادها الإيجابي بخطوة تاريخية، فانضمت لحلف شمال الأطلسي في انحيازات رسمية إستراتيجية. وها هي ذي تجربة سلطنة عمان الحبيبة، برأيها المسموع الرنان، وحيادها الإيجابي بضمير الإنسان، بمبدأ عدم الانحياز كخيار إستراتيجي لم يكن عشوائياً وإنما بامعان، بمبادئ حملتها وفرضت احترامها على الأطراف كافة مهما تفرّق الجمعان، فقامت في حياديّتها على مبادئ بها لا يستهان، فكانت ترفض الانخراط في ما يهدّد سيادة الدول، وترفض أن تكون أداة حرب وأن تكون نصل، ووازنت علاقاتها مع غيرها من الدول، فكانت نواياها سليمة دونما شكوك أو خلل، وآمنت بأن الحوار والوساطة هما أهم حل، وأبدلت خيار التهديد والتّصعيد بالتّفكير على مهل، فكانت لها نتاجاتها الملموسة....

فقد ترسخت سياسة الحياد العُمانية منذ تولّى السلطان قابوس بن سعيد مقاليد الحكم - طيب الله ثراه، إذ تمّ وضع أسس للسياسات الخارجية، بمبدأ مفاده عدم التّدخل والاستقلالية، وها هو صاحب الجلالة السّلطان هيثم بن طارق المعظم حفظه الله ورعاه يواصل نهج الحيادية الإيجابية، مع تكييفه ليتناسب مع التحديات الجديدة الجيوسياسية.

فشكّلت سلطنة عمان لغيرها وشائج ارتباط للوساطة في سعيها لتسهيل الحوار والنقاش في أغلب الأزمات من صراع أو حصار، في سعيها لتحقيق اتّفاق أو رفضها اختلاف... وحافظت على استقرار أمنها القومي، أمام عين إعصار من الأزمات، واشترأت بموقعها عن أيّ صراع، وحافظت على مكانتها لتحقيق التعاون والائتلاف.... وأزهرت بوصفها "صانعة السّلام"، فكان الثناء عليها من أغلب الدول، والاحتفاء بدورها في تخفيف الصدمات والنزاعات، وسام اعتراف...

بحيادها الفاعل كضرورة للبقاء، لا ترفاً ورغبة في الانطفاء، تحققت بيئة سوية، وأرضية ثابتة أبية، وسياسة مستقرة، فأصبحت سلطنة عمان جاذبة للاستثمار، ووجهة لجذب شركات عالمية القرار، وكان لسيادتها العزة والفخر، ولمواردها تنمية وازدهار، وعلى حدودها حماية وسلطة قرار، ورؤية أهدافها شراكة دولية.

ورغم كل ذلك عانت الكثير، فكانت الضغوطات الخارجية وتناقض الأطراف من حولها يشكّلان تعقيداً غير يسير، لكنّها بحنكة وفطنة سعت إلى التعويض والتّعديل، فحيادها من باب قوة وإرادة، وحكمة عميقة بحنكة القيادة، وكانت أدواتها في درب حيادها دليل، فكانت الدبلوماسية الهادئة ببعدها عن الإعلام تملكها مرونة التّواصل، وبالدبلوماسية الثقافية تعزّز صورتها كدولة منفتحة ومتسامحة قادرة على التفاعل، وبالدبلوماسية الاقتصادية تعزّز شراكاتها الاقتصادية وتجذب الاستثمارات والتبادل، وبالوساطة المتخصصة طوّرت قدرات فريدة في مجال الوساطة والتفاوض، وفتحت الآفاق أمامها مستقبلاً لقتوم بدورها في المنظمات الإقليمية والدولية كطرف موثوق ومستقل.

وها هي وقفات سلطنة عمان الحبيبة مسجلة في سجلات التاريخ الأبدى، إذ كانت قناة دبلوماسية حيوية في مفاوضات البرنامج النووي الإيراني، وفي التوترات الخليجية الإيرانية حرصت عمان على البقاء على مسافة متوازنة في علاقاتها مع طهران والرياض بشكل منطقي، ممّا مكنها من العمل كوسيط نزيه إنساني، وفي الأزمة اليمنية، كان لها دور محوري، فقامت بتسهيل المحادثات بين الأطراف المتصارعة، واستضافت عدة جولات من المفاوضات التي ساهمت في التوصل لاتفاقيات وقف إطلاق النار المؤقتة، وحافظت على قنوات اتصال مفتوحة مع جميع الأطراف، بما في ذلك الحوثيين وأطراف أخرى، الأمر الذي أهلها لتكون وسيطاً مقبولاً لجميع الأطراف، كما لعبت دوراً هاماً في تحرير الرهائن والمحتجزين في مناطق الصراع، ونجحت في تسهيل إطلاق سراح العديد من المعتقلين والرهائن الغربيين في اليمن وأماكن أخرى، مؤكدة التزامها بالقيم الإنسانية والدبلوماسية البناءة.

فضلاً عما تبنته من منهج ثابت في قضايا المنطقة يقوم على احترام سيادة الدول، وتجنب التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، والالتزام بالقانون الدولي ومواثيق الأمم المتحدة، والاستثمار في بناء علاقات ثقة طويلة الأمد مع جميع الأطراف، فاستطاعت بذلك تحقيق توازن دقيق لعلاقاتها وتحقيق مكاسب اقتصادية ملموسة، وفي ظل "رؤية عُمان 2040"، سعت السلطنة على تنويع اقتصادها بعيداً عن الاعتماد على النفط، مستفيدة من علاقاتها المتوازنة مع مختلف القوى الاقتصادية العالمية، وتمكنت من تطوير موانئها الإستراتيجية، خاصة ميناء صحر وميناء الحقم، كمراكز لوجستية إقليمية بالاستفادة من موقعها الجغرافي المتميز على مضيق هرمز وبحر العرب، مستثمرة حيادها السياسي في تعزيز مكانتها كمركز تجاري إقليمي آمن.

واليوم هاهي ذي سلطنة عمان الحبيبة مرة ثانية تتابع نهجها باستضافتها للأطراف المتنازعة من الولايات المتحدة وإيران، وجمعهم على طاولة الحوار في أرضها ضمن محادثات تاريخية غير مسبوقة، وذلك بعد اختيارها بما تم وصفها بكونها غرفة هادئة، لما تملكه من قدرات وإمكانيات لتذليل العقبات لإيجاد أرضية مشتركة تمهيداً لنقاش يؤسس لمرحلة جديدة من التوازنات في المنطقة.

وما كانت هذه النظرة وذاك النهج وتلك الخطى التي حملتها سلطنة عمان الحبيبة سوى تأكيد على عمق كلمة وخطاب جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم طيب الله ثراه بمناسبة العيد الوطني السابع عشر، حين قال في إرثه الخالد:

"إننا جزء من هذا العالم، نتفاعل مع ما يدور حولنا من أحداث بكل إيجابية ووضوح، ونكرس كل إمكانياتنا للمشاركة الموضوعية والفعالة لخدمة قضايا السلام والتعاون على كافة المستويات الإقليمية والدولية". وكما كانت البدايات تقول كلاماً، فهذا هو ختام القول يؤكد قولاً،

في هذا العالم المضطرب الذي تتصاعد فيه النزعات الاستقطابية، يقدم النموذج العماني للحياد الإيجابي دروساً قيمة للمنطقة والعالم، فهو ليس من منطلق السلبية، بل موقف مبدئي يتطلب الشجاعة والالتزام بقيم السلام والحوار الأزلية، فهذا هي التجربة العمانية تثبت أن الحياد الإيجابي ليس مجرد خيار تكتيكي، بل تكامل وشمول في الإستراتيجية، تستند بذلك لرؤية عميقة للأمن والتعاون الإقليمي بين المناطق الدولية، وفي منطقة ممزقة بالصراعات، تبقى دبلوماسية عُمان منارة تضيء طريق التعايش المشترك والتسويات السلمية، فقيمة سلطنة عمان الحبيبة لا تكمن في حيادها وتجنب الصراعات وإنما في قدرتها على المساهمة الإيجابية، وتلك هي القيمة المضافة الحقيقية، إذ جعلت من حيادها جسراً للتواصل لا حاجزاً للعزلة، وأداة للسلام لا للتنصل من المسؤولية.